الاسْتِنْسَاخُ العِلْمِيُّ وَالأَدَبِيُّ لِعَنَاوِينِ المَوْضُوعَات

فِي ضَوْءِ العَمَل البيبلوجرافي

محمد جمعة عبد الهادي موسى(♣)

مُقدمة:ـ

يُدرك القَائمون على إعدادِ الفهَارس والكشَّافَات التَحليلية المتَنوعة وخاصة المشتغلين بعلوم المكتبات[2] والوثائق والأرشيف قيمة وأهمية الببليوجرافيات باعتبارها "حقل من حقول علم الكتاب، تدرس أوعية المعارف الإنسانية"[3]، من خلال القيام بأعمال التكشيف والفهرسة الموضوعية للدراسات والبحوث، والأعمال العلمية والأدبية بشكل عام، وتنظيمها وتَرتيبها ووضعها في قوالب ممنهجة، ولعلنا نعتقد أن ذلك في حد ذاته تهذيبًا للتراث[4]؛ وهو ما جعل الطريق البحثي عند البعض منهم مَيسورًا في اختيارِ عنوان

(♣) باحث دكتوراة في التاريخ الإسلامي.

(2) "يعتبر مجال الفهرسة من أهم مجالات دراسة المكتبات؛ ذلك لأن نتاجها يتمثل في وسائل السيطرة على مختلف مصادر المعرفة وتقديمها مرسومة ومنظمة للدارسين والباحثين". د. عبد الله الشريف: "الفهرسة أثناء النشر"، (مجلة الناشر العربي، ليبيا، العدد: 4، 1 أبريل، 1985م)، ص 103.

(3) د. عدنان درويش: "أهمية الفهرسة الوصفية (البيبليوجرافيا) الوطنية والسبيل إلى وضعها"، (مجلة التراث العربي، سوريا، العدد: 50، 1 يناير، 1993م)، ص 28.

(4) "عرف تراثنا الإسلامي فن "تهذيب التراث"؛ أي مراجعته، وإعادة إخراجه في صورة أفضل، سواء من حيث الشكل أو المضمون؛ والذين يراجعون فهارس المخطوطات العربية والإسلامية، وعناوين الكتب التي طبعت من هذه المخطوطات، يجدون آلافًا مؤلفة من عناوين الكتب التي هي عبارة عن "تهذيب" لكتب

الأطروحة العلمية، وإيجاد دراسة جديدة، أو مدخل لعنوان بحثي يرنو إليه عقله وفكره وبصيرته، وهو حلا سليمًا مقبولا ومنطقيًا لمواجهة هذه الصعوبات، إذا قُدم هذا في "قوالب موضوعية" مرتبة ومصنفة لعناوين الموضوعات البحثية من خلال عمل ببليوجرافي دقيق، وبمواصفات منهجية يقوم بها كل باحث في حقل تخصصه.

أولا: تساؤلات:ـ

التساؤل المطروح .. هل لدى الباحث القدرة على استخدام الأدوات الببليوجرافية في طرح موضوعات جديدة؛ ربما تتصل بدراسات متشابهة من حيث العنوان، ولكن في إطار زمني وموضع جغرافي آخر على أقل تقدير في شكل "منظم"، و"دقيق"؛ يُستفاد منه في إعداد الأطروحات العلمية (الماجستير والدكتوراة) والبحوث المحكمة عامة؟ الإجابة: "نعم"، يمكن ذلك .. وهو ما نسميه بعمل [استنساخ] لعناوين الدراسات العلمية، والأعمال الأدبية أيضًا لما في ذلك من فوائد عدة وميزات متعددة سندركها في هذه المقالة المتواضعة في ضوء فكرة (تجديد بنية العرض الببليوجرافي للموضوعات البحثية)، خاصة إذا علمنا أن "كل مصادر المعرفة لابد من فهرستها وإعدادها للتداول"[1].

والأمر هنا مرتبط بجدولة وتنظيم الأفكار والمشروعات البحثية في إطار دقيق[2]؛ بحيث يمنح (المجتمع) دراسات شاملة وكاملة عن موضوع معين، حتى يمكن معه تقرير الاستنتاجات البحثية، ومحاولة لاستغلاق الثغرات المتناثرة في البحوث هنا وهناك، وترميم الصورة البحثية قدر المستطاع عن طريق الدراسات الكبيرة أو البحوث المختصرة أو حتى المقالة.

كتبها السابقون". د. محمد عمارة: تهذيب التراث الإسلامي، (مجلة الأزهر، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، 1438هـ/2017م، مج90، ج 5)، ص 991.

(1) موريس توفيق روفائيل: "مدخل لعلم الفهرسة: دراسة في الجوانب النظرية والعلمية"، (مجلة الناشر العربي، ليبيا، العدد: 9، 1 يونيو، 1978م)، ص 180.

(2) محمد جمعة عبدالهادي: "فهرست الأفكار وتأريخ الفكرة"، (مجلة فكر الثقافية، المملكة العربية السعودية، العدد: 18، (فبراير – إبريل، 2017م)، ص 72- 75.

ثانيًا: المقصود بالاستنساخ العلمي والأدبي للموضوعات والعناوين:ـ

إن الاستنساخ عند العلماء هو عملية يتم فيها إنتاج نسخة مطابقة جينيًا من خلية أو نسيج أو كائن حي، ثم يُطلق على النسخة الجديدة مصطلح "مُستنسَخ"[(1)]، إلا أن عملية الاستنساخ هنا هي عملية يتم فيها إنتاج نسخة جديدة من الدراسات والبحوث مطابقة –إلى حد كبير– منهجيًا وفكريًا – على أقل تقدير– من بحوث ودراسات وأعمال متشابهة، ونطلق عليها أيضًا "دراسات مُستنسخة".

وإذا كان يعوّل العلماء على تقنية الاستنساخ في تطوير أنسجة وأعضاء لعلاج الأنسجة أو الأعضاء المصابة أو التالفة في الجسم البشري؛ فإن الاستنساخ المقصود هنا مطلوب كذلك لاستكمال جوانب الموضوع زمنيًا وجغرافيًا وعلاج جوانبه والعناصر المتفقده والناقصة فيه زمنيًا وجغرافيًا، والمثال يزيد من الأمر وضوحًا.

ثالثًا: الأمثلة البحثية والفوائد المنبثقة عنها:ـ

فإذا ما قلنا أن الذي قدم دراسة عن "الحياة العلمية في "قرطبة" في عصر الإمارة بالأندلس"[(2)]؛ فإن غيره يمكنه أيضًا أن يقدم دراسة مستنسخة بعنوان آخر تحت: "الحياة العلمية في "إشبيلية" في عصر الإمارة بالأندلس". وعلى الرغم من أن المؤسس أو المطلق للعمل البحثي والعلمي الأول له شرف تقديم الأصل من الدراسة وهو النموذج الذي يحتوي على المنهج المتبع في الدراسة، والذي سينتهجه من سيأت بعده، فإن هذا الأخير بلا شك سيتمم عملا علميًا يكمل به الصورة الكلية عن (الحياة العلمية في "مدن" الأندلس) والذي لم يتم حتى وقتنا هذا، وهو أمر مفتقد للأسف الشديد ونلاحظه في المكتبة العربية الأندلسية، قس على ذلك –المثال الثاني– دراسة: "دور علماء (غرناطة) في الحياة العلمية بالأندلس" يمكن أن يستنسخ آخر نفس الدراسة ولكن لموضع آخر بإن يدرس "دور علماء (قرطبة) في الحياة العلمية بالأندلس". وبذلك تكتمل صورة دراسة الحياة العلمية بالأندلس من الجانبين من جانب المثال الأول ومن جانب المثال الثاني.

---

(1) راجع: كامل محمد صالح العجلوني: الاستنساخ بين العلم والأديان والمعتقدات، المجلس الأعلى للعلوم والتكنولوجيا، عمان، (2004م)، وعبد الهادي مصباح: الاستنساخ بين العلم والدين، الدار المصرية اللبنانية، (1997م).

(2) ومن الدراسات التي خرجت في ذات العنوان: مصطفى محمد إبراهيم: الحياة العلمية في قرطبة على عهد الناصر والمستنصر، (300 – 366هـ)، كلية اللغة العربية، بنين، القاهرة، (1980م).

وهكذا عن طريق الاستنساخ يتم ترميم الصورة البحثية التي باتت منقوصة في مواطن كثيرة في مشرق ومغرب العالم العربي والإسلامي، بل لعل الاستنساخ العلمي للدراسات يساعد على استكمال المسيرة العلمية والبحثية في حقل ما لموضوعات متتالية مرتبة وممنهجة، فضلا عن أن تكون مدعاة بعد ذلك لعمل المقارنات البحثية التي تفيد في التحليل والاستنتاج سواء كان ذلك وفق فترة زمنية كما في المثال الأول، أو من خلال موضع جغرافي معين كما في المثال الثاني.

أضف كذلك أن هذا الاستنساخ لن يكون صعبًا على التاليين ربما كان وضع أسس وقواعد الدراسات التي من شأنها أن تكون بذرة يتحمل صعابها الباحثين المؤسسين للفكرة، ويمكن أن نوضح ذلك في مثال ثالث: وهو "دراسة دور القبائل العربية في الحياة العلمية بالأندلس" ودراسة هذا الموضوع من الصعب اتمامه مرة واحدة، وإنما يحتاج إلى زمن كبير ومراحل متتالية وممنهجة. ومن براهين هذا المثال ما أقدم على نشره الباحث محمد جمعة عبد الهادي موسى وهو معجمه، تحت عنوان "أعلام القبائل العربية بالأندلس"[(1)]، وهذا المعجم جمع فيه الباحث أعلام القبائل العربية لأكثر من سبعين قبيلة. ثم اختار إحدى قبائل المعجم، وهي "قبيلة لخم" وقام على دراستها كرسالة للحصول على درجة الماجستير، ونجح بالفعل في طباعة المُعجم ومعه الرسالة، فأسس بذلك البذرة والبداية التي بها الدراسة والمنهج. ثم ترك المعجم للباحثين الراغبين في إتمام الصورة، إذ يمكن لباحث راغب في دراسة دور إحدى القبائل العربية بالمعجم أن يختار إحداها ليتمم واحدة تلو الأخرى للصورة المرغوب في دراستها وهي "دور القبائل العربية في الحياة العلمية بالأندلس" كصورة جديدة من صور الحياة العلمية بالأندلس.

إن الأمثلة على استنساخ الدراسات كثيرة، وتخرج أيضًا خارج الإطار المذكور بتناول موضوعات تتعلق بالدول، ومن أمثلة ذلك دراسة موضوع الحسبة على سبيل المثال، وهو موضوع تمت دراسته في مصر خلال عصور مختلفة فاكتملت الصورة بهذا التتابع وبهذه العملية الممنهجة. كذلك موضوعات الطب عبر العصور، وإذا كان ذلك في الإطار العام، فإن من المؤكد أن ذلك لن يتم الوصول إليه إلا من خلال الإطار الخاص بالموضوع والموضع

(1) محمد جمعة عبدالهادي: معجم أعلام القبائل العربية بالأندلس: يبحث في دور القبائل في الحياة العلمية بالأندلس، دار الأفاق العربية، 2017م، (3 أجزاء).

الجغرافي كما تمت الإشارة إليه في المثالين الأول والثاني؛ حتى نخرج بصور علمية مكتملة بدراسات أكاديمية صحيحة تبرز جانب معين من جوانب حياة العرب والمسلمين.

أما الجانب الأدبي فيمكن ذلك تطبيقه على الدراسات الأدبية ومنها الروايات، التي تتناول موضوع به الفترة والموضع، ومن الأمثلة على ذلك رواية "راوي مراكش"(1). لا أستطيع أن أجزم هنا أنه وضعها بذرة ليقوم آخرين بستنساخها وعمل مثيلها في مواطن أخرى، فهو لم يشر إلى ذلك على الإطلاق، ولكن في الوقت نفسه بعد دراسة الرواية وتحليليها يمكن تطبيقها وإخراج رواية أخرى بل –في حد اعتقادي- أبرع وأروع منها في مواطن أخرى كأن تكون تحت عنوان "راوي بغداد" أو راوي "قرطبة" أو "راوي القاهرة" أو "راوي تبوك"، أو "راوي دمشق" قس على ذلك الموطن الذي تنطبق عليه المواصفات التي جاءت في رواية "راوي مراكش" سنجد في كل موطن من المواطن المذكورة تراثا ينتج رواياتا أدبية في غاية الدقة والروعة والمنهجية، وتسمح لنا بخلق عوالم تبهج العقل العربي وتثير في نفسه الولع بالاطلاع على المقتبسات والصور الأدبية المتنوعة بين الرواية هذه والرواية ذاك فسرده بهذه الرواية وهو سردًا ممتعًا تطبيقه على فترة زمنية وموضع آخر سهلا ميسورًا فحسب إنه كما يحتاج إلى مستنسخ ماهر بارع دقيق تحتاج أيضا إلى بصر وبصيرة ليقدم أروع ما يقدمه الأديب.

لقد استوحى الكاتب وقائع روايته هذه من خلال زيارة قام بها للمغرب، لكنه غاص بعمق في طبيعة القيم والسلوكيات والأفراح وأنواع الملابس والمأكولات وطرق التحاور بين الناس، وأمدنا بمعلومات وافية عن تاريخ وجغرافية المغرب، ولهجات أبنائه من عرب وبربر وطوارق، من مسلمين ويهود، ينحدرون من المدن والريف والجبال والصحاري والموانئ. كما قدم صورة واسعة عن الأفكار وطبيعة العلاقات الإنسانية، ووصف لنا تفاصيل الهموم اليومية والمناخ العام السائد في مراكش والمغرب عمومًا. جدير بالذكر أن هذا الأثر الأدبي يُعيد إلى أذهاننا كتاب "ألف ليلة وليلة" حيث كل قصة تولد قصة أخرى في نسيج روائي متشابك وأحداث متلاحقة لا يملها القارئ، لا بل ينتظرها بشق وشغف؛ هذه القصص يسردها رواة كثيرون من شرائح أجتماعية وأصول عرقية مختلفة تعيش في مناطق شتى من المغرب، لكنها تعيش في مراكش طلبا للرزق ولقمة العيش. (وهذا الأمر عينُه فعله

(1) للأديب الهندي جويديب روي – باتاجاريا، (سلسلة إبداعات عالمية، لمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد: 415، 2016م).

الكاتب التركي أورهان باموق، الحائز على جائزة نوبل للأدب عام 2006م، في روايته "اسمي احمر" من حيث تعدد الرواة واختلاف وجهات النظر).

رابعًا: جدول بيبلوجرافي توضيحي:ـ

وفي الجدول الملحق هنا يمكن أن نتبين بعض موضوعات الدراسات، مثل الحسبة، الطب، ثم نعلق بالملاحظات والاستنتاجات المراد توضيح المقالة من خلالها:-

الموضوع	الموضع	العصر	العام	العنوان
الحسبة	مصر	من الفتح إلى نهاية العصر المملوكي	1986	الحسبة في مصر الإسلامية: من الفتح إلى نهاية العصر المملوكي، سهام أبو زيد، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986م).
	مصر	المملوكي	2014	الحسبة فى مصر عصر سلاطين المماليك، نجوان أحمد سعيد، (رسالة ماجستير، جامعة حلوان، 2014م).
	مصر	العثماني	2010	الحسبة في مصر العثمانية، الباحثة: هبة عبد الخالق عبد الله، (رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، 2010م)
		***		
الطب	مصر	الأيوبي	2000	الأحوال الصحية والطبية في مصر والشام في عصر الدولة الأيوبية، محمد السيد أحمد غازي، 2000م، (رسالة دكتوراة، جامعة طنطا)
	مصر	المملوكي	2009	الطب والاطباء في مصر عصر سلاطين المماليك، مكرم عبد الجواد، (ماجستير، جامعة القاهرة، 2009م)
	مصر	العثماني	2005	الطب في مصر في العصر العثماني، نهى سعيد،

(ماجستير، 2005م).				

ونلاحظ في هذا الجدول الذي ألحقناه بالمقالة، عدة ملاحظات تدلل إلى أهمية جدولة وترتيب الموضوعات البحثية تحت مسمى الاستنساخ العلمي للعناوين والتعاقب، خاصة أن الفترات التاريخية ملحقة لبعضها البعض؛ فما كان في أواخر عصر ما هو ثابت ولاحق في العصر الذي تلاه.

أولا: نلاحظ عدم ترتيب تناول موضوع الحسبة أو الطب، ونلاحظ ذلك في تناول الحسبة في العصر العثماني قبل تناوله في العصر المملوكي، وكذلك تناول الطب في العصر العثماني قبل المملوكي.

ولربما تكون هنا وقفة جليلة حول طبيعة الأقسام، فقسم التاريخ بالجامعات المصرية تُدخل في فرع العصر العثماني ضمن تاريخ مصر الحديث، بينما العصر المملوكي هو فرع تاريخ العصور الوسطى، وبالتالي ليست هنالك ارتباطات بحثية من حيث ابتداء البحوث واختيارتها ولعل ذلك في حد ذاته استنتاج جديد في تشرذم العملية البحثية في مصر. ومن ثم فإن الاحتياج شديد لوضع منهج واضح ذو معالم مرتبة للعملية البحثية.

ولا أريد الإطالة حسبي توضيح المراد عمله، وطرح الفكرة دونما إسهاب مخل أو مُمل.

خامسًا: تقرير وخاتمة:ـ

إن عملية الاستنساخ العلمي والأدبي ليس أمرًا صعبًا؛ وليس سهلا في الوقت ذاته؛ هو بينهما يقع؛ يحتاج إلى بصر وبصيرة، وقدر واقتدار، ومطالعة واطلاع، وخبرة ودربة، ومذاكرة واستذكار، ومفردات من شأنها أن تمنح صاحبها القوة والتفرد والابتكار ليُفلح أحدًا؛ باحثا أو أديبًا أو مفكرًا في وضع لبنات متتالية وممنهجة تكشف في النهاية الصور المكملة للأعمال العلمية والأدبية لتكون في النهاية مكتملة صحيحة، تبرز في طياتها الحياة التي يعيشها العرب والمسلمين -عبر المقارنة والتحليل بين هذا وذاك – السلبيات والإيجابيات.

يحتاج الاستنساخ إلى وضع برنامجًا وخطط علمية من خلال المؤسسات البحثية والأكاديمية كالجامعات بحيث يتبين في الإطار نفسه حجم الإسهام العلمي الذي قدمته كجهة معنية بالبحث العلمي عن موضوع ما، كما يدخل في ذات الإطار المراكز البحثية المتخصصة كأن تنشأ منصات علمية تدير عجلة البحث العلمي حول منطقة بعينها كجانب جغرافي أو فترة زمنية كجانب زمني لتتمم دراساته وأبحاثه في حقل من الحقول، وبهذا الشكل يمكن أن تزخر المكتبة العربية بمنهجية عالية في المستخرجات البحثية من أعمال علمية وأدبية على نطاق واسع في أقل وقت ممكن تستفيد منه أجيال قادمة.

مراجع المقالة:ـ

1. جويديب روي – باتاجاريا: "راوي مراكش"، (سلسلة إبداعات عالمية، لمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد: 415، 2016م).
2. عبد الله الشريف: "الفهرسة أثناء النشر"، (مجلة الناشر العربي، ليبيا، العدد: 4، 1 أبريل، 1985م)، ص 103.
3. عبد الهادي مصباح: الاستنساخ بين العلم والدين، الدار المصرية اللبنانية، (1997م).
4. عدنان درويش: "أهمية الفهرسة الوصفية (الببليوجرافيا) الوطنية والسبيل إلى وضعها"، (مجلة التراث العربي، سوريا، العدد: 50، 1 يناير، 1993م)، ص 28.
5. كامل محمد صالح العجلوني: الاستنساخ بين العلم والأديان والمعتقدات، المجلس الأعلى للعلوم والتكنولوجيا، عمان، (2004م).
6. محمد جمعة عبدالهادي: "فهرست الأفكار وتأريخ الفكرة"، (مجلة فكر الثقافية، المملكة العربية السعودية، العدد: 18، (فبراير – إبريل، 2017م)، ص 72- 75.
7. محمد جمعة عبدالهادي: معجم أعلام القبائل العربية بالأندلس: يبحث في دور القبائل في الحياة العلمية بالأندلس، دار الأفاق العربية، 2017م، (3 أجزاء).
8. محمد عمارة: تهذيب التراث الإسلامي، (مجلة الأزهر، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، 1438هـ/2017م، مج90، ج 5)، ص 991.
9. مصطفى محمد إبراهيم: الحياة العلمية في قرطبة على عهد الناصر والمستنصر، (300 – 366هـ)، كلية اللغة العربية، بنين، القاهرة، (1980م)
10. موريس توفيق روفائيل: "مدخل لعلم الفهرسة: دراسة في الجوانب النظرية والعلمية"، (مجلة الناشر العربي، ليبيا، العدد: 9، 1 يونيو، 1978م)، ص 180.

والله ولي التوفيق ومنه الفضل والنعمة